سينما

فيلمها الإشكالي أشعل تونس قبل أسبوع

إنّها صاحبة رؤية صادمة ومجدّدة، كسرت التابوهات وتحدّت دكتاتوريّة زين العابدين بن علي، وطرحت قضايا راهنة من المِثلية وحرية المرأة إلى العلمانيّة. المخرجة التونسية التي واكبت ثورة الكرامة، تتعرّض حالياً لحملة سلفيّة شرسة، بسبب فيلمها «لا الله، لا سيدي» الذي لم تنجح الغزوة الأصوليّة على «أفريكا آرت»، الأحد الماضي، في منع عرضه

نادية الفاني بنت باكونين... وتركة بورقيبة

باريس ــ **عثمان تزغارت**

حين شرعت نادية الفاني في تصوير فيلمها الوثائقي «لا الله، لا سيدي» عن العلمانية في تونس، في آب (أغسطس) الماضي، تحايلت على رقابة الدكتاتور المخلوع زين العابدين بن علي، لنيل إذن بالتصوير، على أساس أنه وثائقي يتناول «تقاليد رمضان في تونس». لم تكن صاحبة «أولاد لينين»، تتوقّع أن يسقط الطاغية قبل أن يبصر شريطها النور: «كنت قد شرعتُ في المونتاج في باريس، حين اندلعت الثورة. سافرت تواً إلى تونس، حاملةً كاميرا صغيرة لتصوير جزء جديد من الفيلم أثناء التظاهرات. وخلال الأسابيع الأولى للثورة، كان موضوع العلمانية في صلب المطالب الشعبية التي نادت بتونس علمانية وديموقراطية...». لم يكن أحد يتصوّر أنّ العمل الذي واكب الثورة، وتحمّس لإطاحة الدكتاتور، سيواجه حملة شرسة بعد الثورة، وتهديداً لمخرجته (راجع المقال أدناه). ليست هذه أول معركة تخوضها المخرجة التونسية المشاكسة. لفتت الأنظار منذ أول أعمالها القصيرة. رؤية إخراجية صادمة ومجدّدة، وخطاب جريء يعمل على خلخلة اليقينيات، وكسر المحظورات الاجتماعية والسياسية، بدءاً من المِثلية («من أجل المتعة» ــ 1990)، إلى الحرية الجنسية النسائية في مجتمع ذكوري («قدّ قدّ، يا حبّي» ـ 1992)، وصولاً إلى تحدي نظام بن علي المتسلّط في Tanitez moi (1993). يومها، انطلق الشريط من سيدي بوسعيد باتجاه قصر الرئاسة في قرطاج المجاورة، راصداً وشم الجدران برسوم غرافيتي ندّدت بالدكتاتورية، واتخذت من «التانيت» (رمز الحضارة القرطاجية) شعاراً للمناداة بالديموقراطية.

بالطبع، لم تتمكن تلك الرحلة من بلوغ جدران القصر الرئاسي، وتوقفت عنوةً عند مبنى «الأكروبوليوم»، لكن عرض الشريط على «كانال بلوس» مثّل قنبلة موقوتة، جعلت شركة الإنتاج Z'yeux noirs movies، التي أسسّتها الفاني عام 1990 تُحرم أيّ دعم حكومي لغاية سقوط بن علي! كل ذلك لم يمنعها من معاودة مشاكسة دكتاتور قرطاج في شريطها القصير الرابع «ما دامت هناك أشرطة تصوير» (1998).

لم ينجح الحصار المالي في تكميم الفاني، بعدما جابت أعمالها مهرجانات العالم، وحازت جوائز عدة. مع ذلك، تأخّرت باكورتها الروائية «البدوي الهاكر» (2003) خمس سنوات. ولم تبصر النور إلا بعد عام على انتقالها القسري إلى المنفى الباريسي. حمل «البدوي الهاكر» (أو الـ hackers، «لصوص» الإنترنت النبلاء) نبوءة مبكرة بأنّ ثورات العالم العربي ستأتي من الإنترنت. رؤيته الإخراجية المبتكرة، المستلهمة من الثقافة الرقمية، خوّلته أن يجوب المهرجانات. بعدها، عادت نادية الفاني إلى السينما الوثائقيّة لتقدّم فيلماً طويلاً بعنوان «أولاد لينين» (2007) تناول جانباً من سيرتها الذاتية من خلال بورتريه جماعي لعدد من أبناء جيلها الذين يتحدّرون ـ مثلها ـ من عائلات يسارية.

وفي آب (أغسطس) الماضي، تصدّت لعمل وثائقي يدور حول تيمة حساسة ومثيرة للجدل هي «الإلحاد في مجتمع مسلم». كان المشروع الأصلي للفيلم يحمل عنوان «قفوا، أيها المرتدّون». وجرى تصوير الفيلم في رمضان الماضي. يومها، استجوبت الفاني عدداً من التونسيين وسألتهم عن ظاهرة النفاق الاجتماعي التي برزت خلال السنوات الأخيرة في موطن بورقيبة، إذ لم يعد غير المتدينين يجرؤون على المجاهرة بأنهم لا يصومون رغم «علمانية تونس»، التي كان نظام بن علي يتبجح بها لمغازلة القوى الغربية التي كانت تغض الطرف عن نظامه الدكتاتوري.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي، كانت الفاني بصدد إنهاء مونتاج الفيلم، وإذا بها تُفاجَأ بتحقق نبوءتها في «البدوي الهاكر» مع انفجار انتفاضة «شباب الفايسبوك». عادت المخرجة إلى بلاد بورقيبة، متأبطةً كاميرا رقمية واكبت تظاهرات شباب الثورة، واستكملت فيلمها عبر طرح إشكالية العلمانية على المتظاهرين التونسيين، ثم في التظاهرات الضخمة التي رُفعت خلالها شعارات تنادي بـ «تونس علمانية وديموقراطية». في خضم تلك الفورة، استجوبت الفاني المتظاهرين التونسيين، بمن فيهم الإسلاميون، حول إشكاليات العلمنة وحرية المعتقد (على موقع «الأخبار» مشهد من الفيلم، يبرز الحوار الهادئ بين

> **تنبأت في «البدوي الهاكر» (2003) بأن الثورة العربية ستأتي من الإنترنت**

رياح المكارثية تهب على بلاد الشابي؟

حين قُدّم العرض الأول لـ «لا الله، لا سيدي» ضمن مهرجان Doc à Tunis في تونس قبل أشهر، كانت القاعة تغصّ بالمشاهدين. لم يجد أحد فيه ما يصدم المعتقدات الدينية، بل استقبل الجميع بحفاوة أوّل فيلم تونسي عن ثورة الكرامة. بعدها، تقول نادية الفاني: «جاءتني صحافية من تلفزيون «حنبعل» وأجرت معي حواراً تحدثت فيه عن مفهومي للعلمانية، بوصفها الإطار الوحيد الذي يضمن العيش المشترك وحرية المعتقد... وذكرت أنّ الحق في الإلحاد جزء لا يتجزأ من حرية المعتقد...». وتواصل الفاني: «فوجئتُ بهجمة أصولية على فايسبوك بعد بث مقطع من ذلك الحوار على يوتيوب جرت منتجته على نحو مغرض لاتهامي بالتهجم على المعتقدات الدينية».

> **مغني الراب Psyco. M: «اضربوا النوري بوزيد بالكلاشنيكوف»**

الأسلوب المغرض الذي أُخرج به «لا الله، لا سيدي» من سياقه، يذكّر بالهجمة التي استهدفت قبل عقود مسرحية كاتب ياسين «محمد خذ حقيبتك» التي كانت تروي معاناة المهاجرين العرب في فرنسا. يومها، استعملت الدعاية الأصولية العنوان للترويج بأن المسرحية تنادي بترحيل الديانة المحمّدية عن الجزائر! ما دفع صاحب «نجمة» إلى تعديل عنوان المسرحية إلى «الخبز المرّ»!

أسوة بكاتب ياسين، قرّرت الفاني تعديل عنوان فيلمها ليصبح «علمانية، إن شاء الله». وقبل ثلاثة أيام من تسلّمها «الجائزة الدولية للعلمانية» في فرنسا عن شريطها، تعرّضت لـ «غزوة أفريكا آرت» (راجع «الأخبار» 28 حزيران/ يونيو 2011) التي حاول خلالها شبان سلفيون منع عرض الفيلم بالقوة. تصدّت العديد من الجمعيات الثقافية لتلك «الغزوة»، التي مثّلت حلقة جديدة في مسلسل التهجم على المبدعين في تونس، بعد اعتداء أصوليين على السينمائي النوري بوزيد منذ أسابيع عديدة.

لكن بلد أبي القاسم الشابي شهد حملة مكارثية تداهن الأصوليين، وتلتمس لهم الأعذار... ما يذكّر بما شهدته الجزائر في التسعينيات، مع

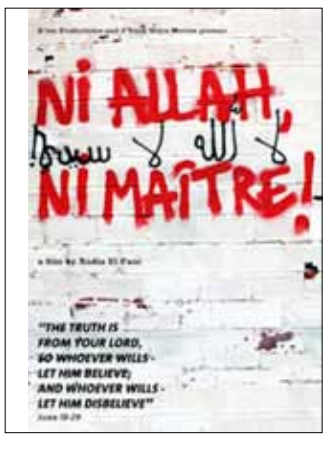

صعود حركات الإسلام الراديكالي. شباب فايسبوك التونسي منقسمون بين من ينادي بجمع 10 ملايين توقيع ضد الفاني (عدد سكان تونس)، ومن يدافع عن حرية التعبير، لكن المفاجأة جاءت من الإعلامي توفيق بن بريك، الذي مثّل رأس حربة في الصراع ضد دكتاتورية بن علي، إذ صرّح بأنّ فيلم الفاني نوع من «البورنوغرافيا الإيديولوجية»، مضيفاً: «عرض هذا النوع من الأفلام يؤدي إلى إثارة هذا النوع من ردود الفعل». بينما يفاخر Psyco. M مغني الرّاب المقرّب من حركة «النهضة» (تيار إسلامي) بتلك الاعتداءات، داعياً «اضربوا النوري بوزيد بالكلاشنيكوف»! أما زعيم «النهضة» راشد الغنوشي الذي تتسم مواقفه بالزئبقية، فقال إنّه لا يستبعد أن تكون عناصر من بقايا حزب بن علي هي التي تحرك الاعتداءات ضد المثقفين... لكنّه أضاف إنّ شريط الفاني يمثّل «اعتداءً على الإسلام»... قبل أن يقرّ بأنه لم يشاهد الفيلم!

عثمان...